مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الغاشية

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الغاشية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾
تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ
مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

استهل عَزَّ وجل سورة الغاشية بأحوال يوم القيامة، وما فيها من الأهوال التي يُنذرُ بها عباده من ذلك اليوم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ هل وصل إلى علمك أيها الرسول خبر أحداث الغاشية، التي هي يوم القيامة. والسؤال هنا موجه لكل أحد من العباد من خلال النبي صلى الله عليه وسلم، تكريماً لمنزلته، وباعتبار أنه عليه الصلاة والسلام هو الْمُبَلِّغ عن ربه تبارك وتعالى. وكذلك لتعظيم هذا الخبر بمقام مَن خَاطَبَهُ الله عَزَّ وجل. فهو خطاب لجميع العباد، ولكنه في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، أي: تعميم للجميع بهذا المضمون.

واستهل البيان هذا السؤال بحرف ﴿ هَلْ ﴾ الذي مفاده قد. ليكون المعنى: قد أتاك حديث الغاشية. ولكن مبناه سؤال يستثير الانتباه، وإلا فإن الله تعالى يعلم إن كان رسوله محمدٌ صلى الله يعلم خبر ذلك أو لا يعلمه. فلا حاجة للسؤال. ولكن الله تبارك وتعالى أورد هذا البيان في سياق الاستفهام من أجل الإفادة بتقرير يوم القيامة، وتأكيده، مع استثارة الأذهان بهذا السؤال. مما يبين أن في السؤال مراداً وغاية عظيمة، وهو إعلام المكذبين والمنكرين بشأن يوم القامة، وشد الأذهان لمتابعة البيان الكريم. وتحصيل التشويق، مع إظهار عظيم ما تناوله البيان من الخبر والإخبار.

وقد سماه الله تبارك وتعالى ﴿ حَدِيثُ ﴾ والحديث هو الخبر المنتشر والمعروف. وسَمّى الله تعالى يوم القيامة ﴿ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ وهو من الغشيان والتغطية. لأنها تغشى الناس بأهوالها. قال ابن عباس رضي الله

عنها: أنها من أسماء يوم القيامة[١] ولما أن دلالة ﴿ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ من الغشيان والتغطية، فقد استوفت دلالتها يوم القيامة، وكذلك نار جهنم. قيل: أنها القيامة، تغشى الناس، قاله ابن عباس والضحاك وابن قتيبة. وقيل: أنها النار، تغشى وجوه الكفار، قاله سعيد بن جبير، والقرظي، ومقاتل[٢] فاستوعب السياق الكريم الأصل، الذي هو غشيان أهوال يوم القيامة لهم، ويدخل في دلالتها غشيان عذاب النار للكفار. ليفيد التحذير والإنذار من الأمرين المتلاحقين. أهوال يوم القيامة، وعذاب النار.

ثم يخبر الله تعالى عن حال صنفين من الناس. وهم الكفرة والمؤمنون. فقال جَلَّ جلاله عن الكفار ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ إنه في ذلك اليوم وجوه متصفة بالخشوع ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾ أي: منكسرة، وخائفة، وذليلة، قد انتكست رؤوسهم خوفاً ومذلة. قال سفيان: أي: ذليلة بالعذاب. وكل متضائل ساكن خاشع. يُقال: خشع في صلاته: إذا تذلل ونكس رأسه. وخشع الصوت: خفى[٣] والمراد بها وجوه الكفار.

ومن أوصاف حال وجوههم أنها ﴿ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴾ أي: هالكة وذليلة، ومُجْهَدَةٌ من شدة العذاب. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ عَامِلَةٞ ﴾ أنها تعمل عملاً شاقاً. قيل: وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال، والخوض في النار ﴿ نَّاصِبَةٞ ﴾ أي: تعبة[٤] مرهقة ومجهدة مما تلاقي من عذاب الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن علة وسبب ما هي عليه من النصب والذلة والمهانة. فقال عَزَّ وجل ﴿ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴾ فهي تتلظى من شدة حرارة النار وتوقدها، وأما شرابهم فقال تعالى عنه ﴿ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴾ أي: من عين قد اشتدت حرارة مياهها. أي: فقد بلغ ماء هذه العين منتهاه وغايته في شدة حرارته. وأما طعام أهل النار فقال عنه عَزَّ وجل ﴿ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴾ أي: اليابس المتهشم من الزقوم. فطعامهم هو الطعام الذي لا نفع لهم فيه، والضريع هو اليابس المتهشم. وقيل: شجر من نار، وقيل هو: الزقوم، وقيل الشجر المليء بالشوك. بما يفيد أنه ليس فيه ما يتحقق به الشبع، وسد الجوع، بل في أكله عذاب. ولذلك وصفه الله تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴾ أي: لا يتحقق به الانتفاع البتة ﴿ لَّا يُسۡمِنُ ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٣٢/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٦/٢٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٠)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٤٢٨/٥)

لا ينتفع به الجسم، فيزداد به قوة ونشاطاً ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ولا يُغني آكله من الجوع، فيشعر بالشبع، فمهما ازداد منه فهو في حالة دائمة من الجوع الذي يقاسي به العذاب الأليم. مما يبين شدة العذاب، حتى أنه يتمنى الشيء، فيجده ضد وعكس ما تمنى وأراد، ليزداد به عذاباً على عذابه الذي هو فيه. وفي هذا تحذير من الله الرحمن الرحيم، لعباده، لعلهم يتقون ربهم، فلا يعصونه، ويتبعون ما جاءهم به الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا الإنذار والإعلام والتأكيد هو من رحمة الله تعالى بالعباد، ولكن أكثر الناس لا يمتثلون ولا يرعوون، ولا يهتدون، بسبب إيثارهم لملذات الدنيا الزائلة الفانية.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى توصيف أهل النعيم في الجنة، الذين هم أهل الطاعة في الدنيا، فقال تبارك وتعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ وجوه ناعمة بما ظهر عليها من النعيم. فإنه في ذلك الوقت الذي هو يوم القيامة يكون نوع وقسم من العباد وجوههم ناعمة بما ظهر عليها من النعيم والسعادة، فقد تهللت وجوههم بالنضارة، لأنها عاينت عاقبة أمرها، بأنهم إلى الجنة سائرون، فهي ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ فهي لعملها الذي كانت تعمله من طاعة الله تعالى، ومجاهدة النفس على ذلك، فإنها راضية بالثواب الذي قد أشرقت به وجوههم. فإنهم ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ في جنان رفيعة المكان، ورفيعة الدرجات. فهم في سعادة بين المروج والأنهار والجنان، فإن من صفاتها أنك ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ لا تسمع آذانهم كلاماً ساقطاً، لا نفع فيه، بما يفيد أنهم لا يسمعون إلا الكلام الطيب الذي تطيب به النفوس.

وللغو هو: الكلام الذي لا قيمة ولا نفع فيه، فضلاً عن الكلام الباطل، وما تتكدر وتنزعج به النفوس.

فجمعت وحوت كلمة ﴿لَاغِيَةً﴾ جميع ما لا فائدة فيه، وهو ما لا يحبه الإنسان العاقل، وقد نفى تبارك وتعالى الأدنى من المنقصات السمعية، وهو اللغو، بما يفيد انتفاء الأعلى والأشر منه. فإن انتفاء الأدنى دليل على انتفاء ما هو أعلى منه، من الكلام الباطل والفاحش، فإن أهل الجنة لن يسمعوا شيئاً من ذلك البتة. مما يبين أن حال أهل الجنة هو نعيم خالص. وليس كحال الدنيا التي يسمع الإنسان فيها ما يكره، من أدنى وأعلى اللغو في الكلام وفواحشه، فبذلك نزه الله تبارك وتعالى مقام الجنة وأهلها من اللغو. مما يفيد أن على الإنسان المؤمن تنزيه نفسه عن اللغو في الدنيا كذلك، فليس هو من خصال الدرجات الرفيعة، حتى وإن مر المؤمن بشيء من اللغو ترفع عنه، فمر به مرور الكرام.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى بالنفي ما تتأذى به النفوس، يقرر ما تتلذذ به الأعين والحواس، وتستطيبه النفوس. فقال الله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ إن في الجنة عيون تتدفق وتنبع، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري مياه العيون من أسافل الجنات وأعاليها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها

وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. وقد وردت العيون بصيغة المفرد ﴿عَيْنٌ﴾ وهو اسم جنس، أي: أن فيها عيون جارية بما فيها من الأشربة.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من نعيم الجنة أن ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: أن في الجنة سرور مرتفعة، سواء ما كان في ذاتها، مما يتعلق بسمكها، أو ما يتعلق بعلوها وارتفاعها، ليشرف الجالسون فوقها على تلك البساتين والأنهار والنعيم. وقد ورد في سورة الواقعة قوله تعالى ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ يجلس أهل الجنة على سرر ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة ومكللة ومشبكة بالذهب والياقوت والدرر. وكأنما أُدخل بعضها في بعض. وقيل: عن الأسرة أنها في غاية من الروعة والبهجة، إذ تتحول في الاتجاه كيفما أرادوا. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر(١) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ فجمع أهلها بين سعادة النفس بالاتكاء، وبين سعادة الاجتماع بغيرهم من أهل الجنة. فهم متقابلون فيما بينهم.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من نعيم الجنة جمال أكوابها، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: وآنية تم إعدادها، ووضعها لمن أرادها. وورد في سورة الإنسان قوله تعالى ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ ويدور عليهم بما يشتهون من المأكولات والمشروبات في آنية من فضة، فجمعت بين بياض الفضة، وصفاء الزجاج. وقد أفادت دلالة الطواف عليهم: أنهم يترددون عليهم بما يشتهون ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: أن الآنية التي توضع فيها الأشياء، ليتم تناولها، وتداولها، هي من معدن الفضة. كما يُدَار عليهم أيضاً بالأكواب من الأشربة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهو جمع كوب، وهي الكؤوس التي لا عُرى لها، فتكون من أفخر وأحسن ما تكون الأكواب ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ فلها بياض الفضة، وصفاء الزجاج. وقد وردت الآنية والأكواب بصيغة الجمع، ليفيد تعددها وكثرتها، وتنوع ما فيها من الأطعمة والأشربة.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من متاع الجنة جمال وسائدها التي تم ترتيبها ترتيباً متتالياً، فقال عَزَّ وجل ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ والنمارق جمع نمرقة، وهي الوسائد. ووصفها ربنا تبارك وتعالى بأنها ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: قد تم صفها ممن يقوم بخدمتهم. وأنها في غاية الجمال.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)

وكذلك فيها البسط فائقة الجمال. قال تبارك وتعالى ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي: والبسط الكثيرة، الموزعة في الجنة، فأينما حل أهلها جلسوا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وفيها طنافس وبُسُط كثيرةٌ، مبثوثة، مفروشة. والواحدة زِرْبية، وهي الطِّنْفِسَةُ التي لها خمل رقيق[1] مما يبين غاية الجمال التي اتصفت بها الجنة، مما يُدخل عظيم البهجة والسرور على أهلها. ليتبين من ذلك عظيم عناية الله تعالى بعباده المؤمنين، وأنه يُرَغِّب عباده جميعاً لهذا النعيم بطاعته، وامتثال رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

وبعد أن أظهرت السورة الكريمة نعيم أهل الجنة، وقبل ذلك عذاب أهل النار، وشيئاً من أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس فيها إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، ينتقل بعدها البيان الكريم إلى لفت الانتباه والعقول إلى مظاهر قدرته سبحانه وتعالى في الكون الفسيح. فإنها مظاهر تدل على عظيم قدرة الله تعالى، وأن ما أخبر به عن الغيب هو حقيقة لا مراء ولا شك فيه بدلائل إبداع الكون العظيم. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ أفلم ينظر هؤلاء المكذبين بيوم القيامة إلى عظيم ما خلق ربهم سبحانه وتعالى من الإبل التي يتعاملون معها في حياتهم؟ سؤال تدبر وتفكر. يلفت به سبحانه وتعالى أنظار العباد إلى نوع واحد فقط من مخلوقاته التي يشاهدونها، ويتعامل معها كثير من الناس. ألم يتأملوا في خلق الله تعالى للإبل، وما فيها من المظاهر التي تدعوا إلى الإقرار بعظمة الله تعالى، وقدرته على البعث والنشور، وعلى كل شيء يخبر به.

وقد استهل البيان الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ أفلا يتأملون، ويتدبرون في هذا النوع من المخلوقات؟ فينظرون بأعينهم وبصائرهم، ويتفكرون في ارتفاع هذه الإبل، وقوة تحملها، وشدة صبرها على حمل الأثقال، وسيرها المسافات الطوال، ومع ذلك تنقاد للإنسان بكل طواعية وامتثال. وهي التي يُؤكل لحمها، ويُشرب لبنها، وينتفع بأوبارها وجلودها. فإن الذي خلقها بهذه القوة هو الذي طوعها بقدرته ورحمته لهذا الإنسان الذي إذا وقف عندها تضاءل حجمه أما حجمها، وقوته أمام قوتها. وهذا السؤال يستدعي الانتباه، بالتفات حواس التلقي نحو التأمل، وتَقْلِيب البصر والبصيرة، والفكر، واستثارة الذهن، لتنكشف له حقائق ما حوله من عظيم تدبير الله جَلَّ جلاله، وعظيم ما خلق ربه عَزَّ في علاه.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٣٧/٢٤)

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ بعد إسنادها بكلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ التي زادت العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. بأن يتأمل ويُمْعِن النظر حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد فكره في استصعاب البعث بعد الموت. والجرأة على الحق، وعلى من أُنزل القرآن العظيم الواضح المبين، وعلى الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، الذي أُنزِل عليه الحق، وهو يدعوهم إليه بالدليل والبرهان. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب ﴿ كَيْفَ ﴾ بعد الأمر بالنظر ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه، كما هو الإعجاز فيما خلق ودَبَّر.

كما تبين دلالة ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. كما تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. بما يبين عظيم فضل الله تعالى وامتنانه على الإنسان، بتمكين حواسه من الوصول إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بهذه الحواس العظيمة الدقيقة بعد توفيق الله تعالى.

وهذا الخطاب شامل لكل أحد من الناس، وتخصيص المنكرين للبعث به على اعتبار أنهم المعنيون على وجه الخصوص. بما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى حثهم على التأمل في ارتفاع السماء الشاهق العظيم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ألم يتأملوا في ارتفاع وعلو السماء العظيم الشاهق، وما يتحقق به من الإيمان بعظيم قدرة الله تعالى، وبالغيب الذي منه البعث والنشور. بما يستوجب الخوف منه عَزَّ وجل، والإذعان لرسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الحق.

ولقد عطف الله سبحانه وتعالى التأمل في ارتفاع السماء على التأمل في الإبل، ليرتقي بهم من الأدنى إلى الأعلى، وهو ارتقاء بالفكر في النظر والتبصر إلى السماء كيف رفعها الله تعالى بغير عمد، بهذا الارتفاع الشاهق العظيم، ثم عطف عليه التأمل في انتصاب الجبال الكبيرة الضخمة في حجمها وعلوها. فقال الله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أفلم ينظروا إلى الجبال العظيمة كيف هي منتصبة على الأرض؟ فهي ثابتة راسية، لا تهتز بهم ولا تميل، ومع هذا هي خاضعة للإنسان، فيرتقي عليها، ويأخذ منها ما يريد من أحجارها، وما ينبت عليها من الزروع. أفلا ينظرون إلى نعمة التسخير التي تدل على أن الله تعالى على كل شيء قدير؟

سؤال يستثير الذهن، نحو تقرير عظيم خلق الله تعالى، وكمال تدبيره وتسخيره، وتطويعه للأشياء بما تقتضي حكمته عَزَّ وجل.

ثم يعطف على ما سبق وجوب النظر والتفكر في شأن الأرض. فقال تعالى ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أفلم ينظروا إلى الأرض كيف بسطها الله تعالى، ومَدَّها امتداداً عظيماً، ليدل على توسعة الله تعالى على العباد في الأرض التي يعيشون عليها، فلم يجعلها ضيقة، فيتزاحمون عليها، بل جعلها متسعة لمساكنهم، ولزروعهم، ولمراعيهم، ولكل ما يحتاجون، حتى أنهم يستعملون ويستخدمون منها أقل القليل منها، وهذا من فضل الله تعالى، فله الحمد على هذا البسط والسعة، مما يدل على كرمه ولطفه وسعة عطائه، وعظيم خلقه، وسعة رزقه. وهذا يدل على أهمية التأمل في مخلوقات الله تعالى، فإنها تغرس وتزيد الإيمان، وتوسع الفكر، وترتقي وتعلو به. مما يفيد أهمية العناية في التعليم والوعظ والإرشاد بجانب التدبر في ملكوت الله سبحانه وتعالى.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعظ العباد، وقد حدد له المسؤولية في التكليف، بأنها قائمة على التذكير من غير إلزام العباد على ما يريد. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فذكر واستمر في تذكير الناس بما أمرك الله تعالى به أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد حصر مهمة الرسالة في التذكير فقط، فقال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فإنما أنت مُذكر للناس، بهداية الدلالة، بأن تدلهم على الحق، وترشدهم إليه. بما يفيد: أنك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لست مُكَلَّفاً باستجابتهم لما تدعوهم إليه من الحق. فكل إنسان مسؤول عن نفسه. وقد ورد القصر على تخصيص التكليف في التذكير فقط بأداة القصر ﴿إِنَّمَآ ﴾ ثم تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿أَنتَ ﴾ ثم تعيين المهمة بالتحديد ﴿مُذَكِّرٌ ﴾ وبالتالي فإن عدم إيمانهم لا يضر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن المنفعة والمضرة عائدة عليهم. مما يعلم الداعية والناصح للحق والخير أن مهمته تنحصر في الإرشاد والنصح والترغيب والترهيب بالمواعظ الحسنة فقط، وأما تحقق التوفيق للناس فليس من شأنه، فكل إنسان بصير بنفسه، ويتحمل تبعات أعماله وتصرفاته.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك بنفي أن يكون في تكليفه بالرسالة ما يُوجب عليه إكراههم. فقال تعالى ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ لست عليهم بمتسلط، فتكرههم على الايمان، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لست عليهم بجبار[1] ثم يُورد الله تعالى التهديد والوعيد لمن كفر، وتولى عن الحق وأعرض عنه. فقال الله تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ ولكن من تولى وأعرض عن وعظك له،

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤١/٢٤)

كافراً، وصاداً عن دين الله تعالى ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ فإن الله تعالى سيعذبه بعذاب جهنم العظيم. لأنها أكبر وأعظم من عذاب الدنيا. فسماه الله تعالى ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ أي: أنه متناهي في شدته إلى أقصى ما يكون العذاب. وأنه مهما أصاب الإنسان من العذاب في الدنيا، فهو عذاب أصغر في كل شيء، وأما العذاب العظيم الأكبر فهو في الآخرة. وبما يفيد التحذير لكل من تولى عن الحق واستمر على كفره بأن عذاب الله تعالى العظيم قادم إليهم في الآخرة.

ثم يستمر التهديد لهم بتأكيد مرجعهم إلى الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ إن عودتهم ورجعتهم إلينا يوم القيامة ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ ثم بعد عودتهم إلينا سنحاسبهم على كفرهم، وتوليهم عن الحق، وما وعظهم الرسول به صلى الله عليه وسلم. فأثبت الله تعالى لهم بأن عودتهم إليه عَزَّ في علاه. وأن هذا بيان وإنذار لكل من كفر، إلى أن تقوم القيامة. وأن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وعما اكتسب من الخير أو الشر.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الغاشية. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.